

السيدة سكينة بنت الحسين

للأستاذ سعيد الديوه جي

(تممة)

مزاها ونزكها:

إنتهى الفرزدق من حجته ويم شطر المدينة المنورة ليسلم على السيدة سكينة أملاً في صلتها ورغبة في ثنائها لينفيظ بهذا خصمه بل أكبر أعدائه « جريراً ». والفرزدق من الحزب العلوي ، طورد وسجن واضطهد بسبب تشييعه لهم . ولم يكن هذا الحب الصادق لآل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى أمام الخليفة هشام . ولكن هذا لم يخلصه من انتقاد السيدة سكينة وتهكمها به . ولما مثل في ندرتها سألته : من أشعر الناس ؟ - وهي تعلم مكانته من الشعر فهو أنغر الشعراء الأمويين وأمدحهم وأمتهم أسلوباً وأجزلهم لفظاً - قال : أنا . قالت : كذبت . أشعر منك الذي يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن زارته لاس
ومن أسمى وأصبح لا أراه وبطرقنى إذا جمع النيام

ولا شيء يفيظ الفرزدق أكثر من تفضيل قرنه وخصمه الألد جرير عليه . بهت الفرزدق وأسقط في يده . وماذا يصنع مع سكينة التي تريد أن تلمب بعقل هذا الشيخ ؟ قال لها : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : لا أحب فأخرج عني . خرج الفرزدق يمشى في أذياله ، ويخشى أن يشيع هذا الخبر فيسمعه جرير ويتخذ حجة له عليه . وفي اليوم الثانى عزم على أن يعيد الكرة لعل الله يشرح صدر سكينة فتشمله بمطفها وتمن عليه بكلمة ثناء تجبر بها كسره . ولما مثل في صالونها قالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ، أشعر منك صاحبك حيث يقول :

لولا الحياء لهاج لى استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
كانت إذا جمع الضجيع فراشها كتم الحديث وعفت الأسرار
فقال لها : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . فأمرت به فأخرج . ضاقت عليه الأرض بما رحبت فلا يدري ماذا يعمل

وعن يلود . ولكنه لم يقطع أمه من صلتها وثنائها . فقصدها في اليوم الثالث . ولما مثل في صالونها ، سألته : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت . صاحبك أشعر منك حيث يقول : إن الميرون التي في طرفها حور تلتنا ثم لم يحين قتلانا يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به . وهن أضعف خلق الله إنسانا علم الفرزدق بأن شعر جرير قد وقع في قلبها لرقته وسلاسة ألفاظه وخلوه من الفحش والخبث ، فهو يمثل النفس الطاهرة الطيبة . عندئذ لجأ الفرزدق إلى التلطف والتوسل ، فقال لها : « يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن لى عليك حقاً عظيماً : خرجت من مكة بإرادة السلام عليك فكان جزاؤى منك تكذيبى ومنى من أن أسمعتك » وعرض لها بكلامه أن تهبه جارية وضيئة من جواربها أعجبتة . فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية . وقالت : « يا فرزدق أحسن صحبتها فإنى آرتك بها »

وأحاديثها مع عروة بن أذينة كثيرة . وهو من فقهاء المدينة ومحدثيها . وقد أخذ عنه الإمام مالك . كان من الاتقياء ولكن قلبه لم يخلص من الهوى . كان يحب وكان يعشق ولكن كان يستر حبه ويكتم هواه - ومهما حاول المرء كتم هواه فلا بد أن يظهر يوماً على لسانه

بينما كانت تسبر سكينة بوادى العقيق رأت هذا الشيخ قالت إليه بموكبها ووقفت عليه وقالت له : يا أبا عامر ، أنت الذى تزعم أن لك مروءة وأن غزالك من وراء عفة وأنت تقى ؟ قال : نعم . قالت : أفأنت الذى تقول :

قالت وأبشيتها وجدى فبحت به

قد كنت عندي تحب الستر فاستتر

ألت تبصر من حولي ؟ فقلت لها

غطى هواك وما ألقى على بصرى

قال لها : نعم

قالت : « من حولي من الجوارى حرائر إن كان هذا خرج من قلب سليم » وكيف يخرج هذا الغزل الرقيق من قلب خال من الهوى وإن لصاحبه من حب الجلال ما جعله يتخذ له قصرأ في وسط العقيق عن الأدياء والظرفاء والمجان .

بين فتيات الطبقة الأرستقراطية وتمدهن إلى بقية الطبقات . ذلك لأن السيدة سكيئة أول من ابتكره وظهر به . كما كانت تصصف جنتها نصفياً لم ير أحسن منه . وصارت اللمة « السكينية » هي المتبعة في تصفيف الشعر . ولم يقتصر هذا التقليد على النساء بل إن فتيان قريش أخذوا ينسقون شعورهم على مثالها . وكان عمر بن عبد العزيز إذا رأى رجلاً يصصف جنته « السكينية » جلده وأمر بحلق شعر رأسه .

وأما تنسيق ندوتها وما يجد فيها من رياش وأثاث ورياحين فكان حديث فتيات قريش . فما من فتاة إلا وترور هذه الندوة لتنظر ما استجد بها مما أبدعته قريجة سكيئة لتقلدها في ذلك .

فإن السيدة سكيئة هي سيدة نساء عصرها على الإطلاق . كانت أحسنهن عقلاً وأظرفهن ، وأعلمهن وأعلاهن مقاماً وأرفعهن أدباً . تجالس الأجلة من فريش ويسمى إلى مجلسها أصحاب العلم وأرباب الفن يستمعون إلى محاضرتها أو يلتصمون صلتها . كما كانت تطرح عليهم الأسئلة ويجادلهم بما يقولون وتنتقد آراءهم ولا تخشى في الحق لومة لائم ؛ ولهذا نرى قاصديها يحسبون لها حساباً . هكذا تألق هذا النجم في سماء المدينة وظل يهتدى به حتى سنة ١١١٧ هـ .

وفاتها

وفي صباح يوم شديد الحر فاضت روحها وانتقلت إلى جوار ربها . خرج النعش يتهاذى بين الجروع المحتشدة والقلوب الخاشعة والعيون الدامعة . ولكنهم « حتى على الموت لا تخلو من الحسد » فإن أمير المدينة خالد بن عبد الملك أمر أن يؤخروا الصلاة عليها حتى يحضر وجلس الناس حولها حتى المساء ولم يحضر ؛ وغلبهم النعاس فأرقدوا حولها عوداً بأربعمائة دينار وصلوا عليها جماعات جماعات . وفي صباح اليوم التالي دفنوها ودفنوا معها العلم والأدب والفن .

أقبرت الدار من سكيئة فلا شمراء ينشدون ، ولا علماء يتجادلون ، ولا رواة يحدثون ، ولا أدباء يحثكون .

« أضحت خلاً وأضحي أهلها احتملوا »

أخني عليها الذي أخني على لبد »

مصحف الصبور محمد

(الموصل)

ومن تهكمها : أنها كانت في ماتم فيه بنت لثمان بن عفان . فقالت بنت عثمان مفتخرة : « أنا بنت الشهيد » فسكتت سكيئة فقال المؤذن : « أشهد أن محمداً رسول الله » فالتفتت إلى بنت عثمان وقالت لها : « هذا أبي أم أبوك ! » فبهت العثمانية وقالت : « لا أخبر عليكم أبداً »

وكانت تسلك طريق الدعابة والمزح في حياتها ، ونوادرها أكثر من أن تحصى

ومن ذلك أن اسمها ديرة . فقالت لها أمها مالك ؟ فضحكت وقالت : « لسعتني ديرة ، مثل الأبيرة ، أوجعتني فطيرة » .

وبعث مرة إلى صاحب الشرطة : أنه قد دخل علينا رجل شامى قابض إلينا بالشرط . فركب معهم وأتى إلى باب سكيئة . فأمرت ففتح له . ثم أمرت جارية من جواربها فأخرجت إليه برغوثاً وقالت : « هذا الشامي الذي شكوانه » فانصرفوا يضحكون . ولعل أجل مزحها كان مع أشعب خادمها ومضحكها . وكما لاق هذا الخنث من تنفيذ أوامرها الأمرين : تارة تأمر جواربها أن يطلن بطنه وطأ شديداً تكاد تخرج أمعاؤه منه . أو تأمرهن أن يخنقنه أو يسحبنه على وجهه ويلقى خارج الدار . أو تأمره أن يقلد أصوات الحيوانات فيموى كالهرة أو يهر كالكلب . غضبت يوماً عليه فدعت حجاباً ليحلق لحيته . فقال له الحجاب : انفخ شديك حتى أتمكن منك — وأشعب حتى في مثل هذه الحالة يحاول أن يضحك سيده — فقال للحجاب : « أمرتك أن تعلمي الزمر أو أن تخلق لحيتي ! » فضحكت وغفت عنه .

وغضبت عليه مرة أخرى فأمرت أن يتخذ بيت من عود ويوضع فيه بيض وتين وأدخلت أشعب به . وحلفت ألا يخرج من البيت حتى يحضن البيض كله إلى أن يفقس . ففعل أشعب — وكلما دخل زائر إلى دار سكيئة كان أشعب يقرر مثل الدجاجة — حتى فقس البيض كله فراريج . وأمرت أن تربي الفراخ بدارها . وكانت تنسهن إليه وتقول : « بنات أشعب »

تأثيرها في المجتمع

ولم تقتصر شهرتها بين أهل عصرها في العلم والأدب والفن بل كان لها تأثير شديد في كل ما تفعله . فلم تظهر برى إلا انتشر